ورقة بحثية

WWW.GHIRASCENTER.ORG

كيف فكَّك
عليّ عزت بيجوفيتش
مقولات الفلسفة المادية؟

عبـاس شـريفة

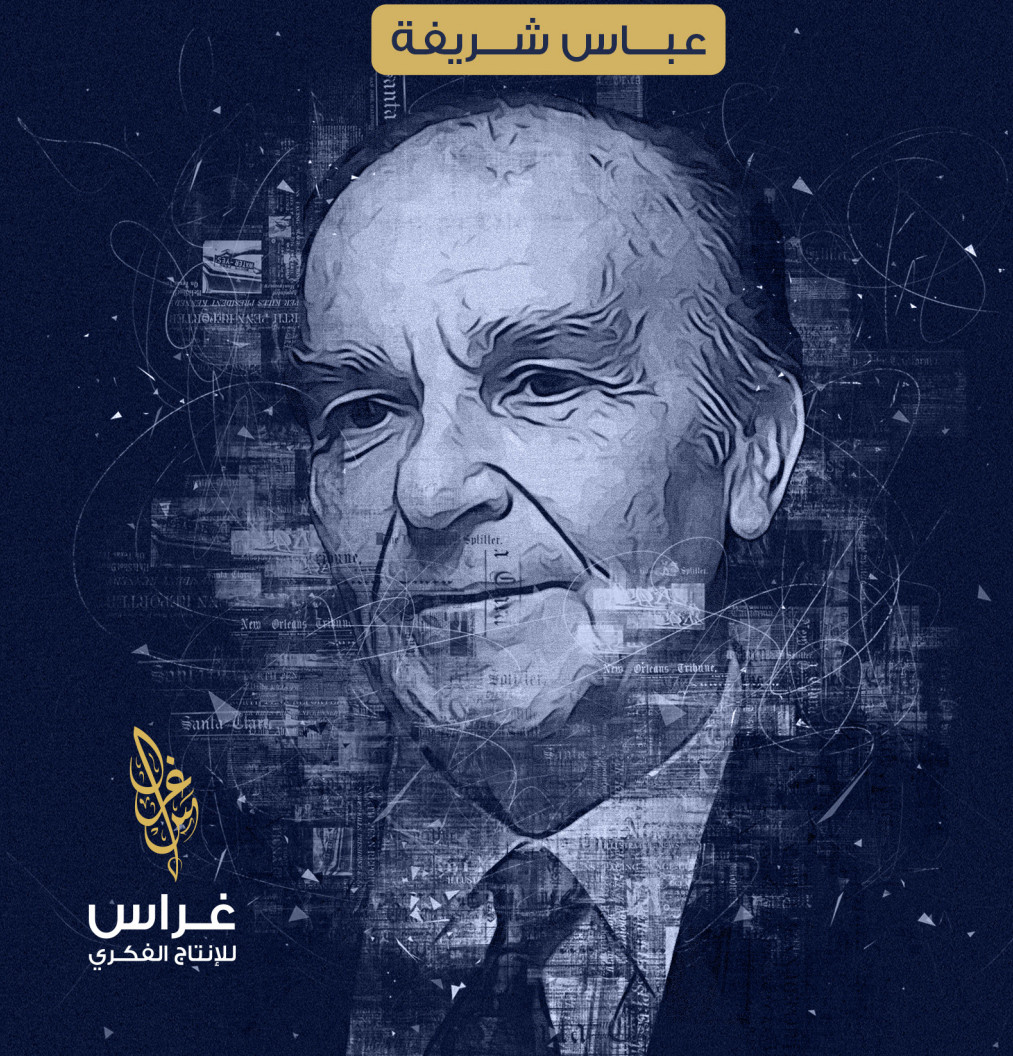

غـراس
للإنتاج الفكـري

ورقة بحثية

كيف فكَّك عليّ عزت بيجوفيتش مقولات الفلسفة المادية؟

عباس شريفة

غـراس
للإنتـاج الفـكـرى

مركز غراس للإنتاج الفكري

هو مؤسسة غير ربحية، تُعنى بتحرير القضايا الفكرية والثقافية والاجتماعية المعاصرة. تأسست في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٣ الموافق جمادى الأولى ١٤٤٥ للهجرة.

يسعى المركز للمساهمة في معالجة القضايا المجتمعية ونشر ثقافة محصنة ضد الاختراقات الفكرية والأخلاقية في عالم تزاحمت فيه الأفكار، وتصادمت فيه التساؤلات، وغدت الحيرة عنواناً لكثير من الناس.

GHIRASCENTER

info@ghirascenter.org

+90 531 437 25 99

تمهيد

شكَّل كتابُ عليّ عِزَّت بيجوفيتش المُسمَّى بـ (الإسلام بين الشرق والغرب) رافداً معرفياً مُهِمَّاً؛ للمهتمين بدراسة الفكر الغربي الحديث؛ ونقد مقولاته المادية في تفسير الوجود الإنساني، فقد كتب المؤلف هذا الكتاب في السياق الزمنيِّ الذي غدا فيه الصراع على أشدِّه بين الشيوعية المادية والإسلام في تقديم فلسفة الخلاص الأبدي للإنسان.

كما يكتسب الكتابُ أهميتَه من شهرة مؤلِّفه الذي وُلد وعاش في ظل الأنظمة الشيوعية المادية، فقد استطاع بيجوفيتش بمنهجه الأركيولوجي وعمق تحليله البنيوي وطرحه الشامل أن يكون مرجعاً فلسفياً لتعميق النظرة العامة للإسلام واستشعار عظمته بوصفه نظامَ حياةٍ شاملٍ عند مقارنته بالرؤية المادية للمجتمعات الرأسمالية التي تتيه على المسلمين اليوم بصورة برَّاقة من تقدمها المادي الخادع وهي تعيش بؤس التخلف الأخلاقي والإنساني.

لقد انطلق بيجوفيتش في نظرته النقدية للفكر المادي من تحليل الظاهرة الإنسانية بكل أبعادها وتجلياتها؛ ليثبت أنَّ هذه الظاهرة لا تنتمي بتاتاً إلى الوجود المادي فقط؛ لكنها تحتوي في جوهرها بعداً روحياً متجاوزاً للمادة، وبذلك لم ينح بيجوفيتش إلى نسف الفكر المادي ونقضه من جذوره وإنما ذهب ليثبت مكمن النقص والقصور في تفسيره للوجود عامة وللوجود الإنساني بشكل خاص، ومن هنا لم ينف بيجوفيتش الجانب الحيواني في الإنسان ولا الجانب المادي وإنما ذهب لإثبات قصور هذا التفسير؛ لأنَّه لا يستغرق كامل الجوانب الإنسانية.

في هذه الورقة سنقف مع أهم المقولات المادية التي فكَّكها بيجوفيتش وهي خمسة مقولات أساسية:

- التطور والخلق
- جدل الفكر والواقع
- تأسيس الأخلاق
- أدلجة العلم
- الحتمية والحرية

هذه المقولات الخمسة تحاول اليوم العودة للنهوض برأسها من جديد بعد أن تلقت ضربات قاسية خلال القرن الماضي؛ لكن ميليشيا الإلحاد الجديد تحاول اليوم بناء سرديتها الإيديولوجية وسترها بقناع العلم لخوض معركة ثقافية صفرية مع الإيمان واستباحة الجوهر الانساني؛ لذلك كان

من الضرورة بمكان إعادة احياء الجدل الفكري مع التيارات المادية؛ هذا الجدل الذي خاضه رموز الفكر الإسلامي نهاية القرن الماضي ومنهم المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش.

في هذه الورقة نعالج السؤال المركزي كيف فكك بيجوفيتش المقولات المادية، وكيف اكتشف جانب القصور البائس والتهافت المنطقي والأخلاقي لهذه المقولات مع مآلاتها ولوازمها الضرورية؟

إن الغاية من مناقشة أفكار بيجوفيتش في تفكيكه للمقولات المادية هو إكساب المهتمين في جدل الإلحاد مزيداً من العمق النظري والنماذج التحليلية المهمة التي تساعد في بناء ملكة المهارات الجدلية في حلبة موجهتها بضربات قاضية يسطع معها برهان الإسلامي الفلسفي.

أولاً: جدل الخلق أم التطور بين بيجوفيتش وداروين

تُعتبر نظرية التطور أو ما يعبر عنها بالنشوء والارتقاء هي أهم المقولات التي يستند عليها الفكر المادي في تفسير وجود الإنسان كما حررها الباحث الإنكليزي تشارلز داروين[١] في كتابه أصل الأنواع.

وتنصُّ نظرية النشوء والارتقاء على جملة من المُسَلَّمات:

إن التنوع الهائل في أشكال الحياة على الأرض اليوم هو نتيجة لتغيرات طفيفة حصلت للمخلوقات الحية عبر مليارات الأجيال وعليه:

فإنَّ هنالك سلفاً مشتركاً للكائنات الحية وإنَّ الحياة نشأت في مكان ما على الأرض وهناك شجرة نَسَبٍ تطورية تجمع كل الموجودات الحية فالأحصنة والخفافيش والبكتيريا وأشجار السنديان والمائيات والبرمائيات كلهم أبناء عمومة ومن طبيعة واحدة، وعائلة واحدة.

بالإضافة لما سبق هناك دعوى تقول: بوجود آلية طبيعية تقود علمية النشوء والارتقاء والمرشح الأبرز لهذه المهمة هو الانتخاب الطبيعي الذي

---

(١) تشارلز روبرت داروين: Charles Robert Darwin عالِم تاريخ طَبيعي وجيولوجي بريطاني ولد في إنجلترا في ١٢ فبراير ١٨٠٩ في شروزبري لعائلة إنجليزية عَلمية وتوفيَ في ١٩ أبريل ١٨٨٢.

يعمل على طفرات جنية عشوائية، ويقول دارون: إن الانتخاب الطبيعي كان الوسيلة الأساسية وليست الوحيدة للارتقاء وهي ما سميت الداروينية.[١]

مناقشة بيجوفيتش لنظرية التطور

لم يركز بيجوفيتش في رده على نظرية التطور إلى هدم ما شيدته النظرية في تفسير الجانب المادي من الإنسان، ولم يأت على نفيه أصلاً؛ لئلا يرى أن أصل المشكلة في التفسير المادي للجانب الحيواني من الإنساني وإنما في جانب الاقتصار على هذه الجانب، وإلغاء الجانب المتجاوز للمادة، وهنا يتسق بيجوفيتش مع نفسه عندما يقرر أن الإنسان مركب ثنائي من مادة وروح؛ وذلك من خلال مجموعة من الأدلة التي لا يمكن لأنصار الداروينية التطورية ردها إلا بجحود وتعسف في نفي الجوانب الروحانية التي تستعصي على تفسيرها بمجرد التطور رغم إقرار بيجوفيتش لتطور الإنسان في عالمه الخارجي فقط.[٢]

وهنا نسرد بعض هذه الأدلة التي ناقشها بيجوفيتش في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب ليثبت أن اختلاف الإنسان عن الحيوان هو في الجوهر والرتبة وليس بمجرد الرتبة كما تقول الداروينية، وهنا يتوجه بيجوفيتش من سؤال التطور إلى السؤال عن جوهر وماهية الإنسان.[٣]

---

(١) تشارلز ربورت داروين، أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر، الناشر مؤسسة هنداوي سي أي سي تـ ٢٠١٧، ص، ٦٨٥.

(٢) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ترجمة: محمد يوسف عدس)، بيروت: طبعة دار الشرق، القاهرة، الطبعة ١٧، ٢٠٠٠م، ص ٦٦.

(٣) المصدر السابق نفسه الصفحة ٦٧.

١- البعد الدرامي في الروح الإنسانية والبحث عن المعنى

يرى بيجوفيتش أن الدراما الإغريقية ورؤيا دانتي في الجنة والجحيم، والأغاني الدينية الإفريقية، والصور الجصية اليابانية القديمة والرسوم الحديثة، إن هذه الأمثلة تدل بوضوح أن الإنسان الذي أبدعها ليس له علاقة بإنسان دارون، إن البعد المأساوي الذي تعبر عنه هذه الرسوم والبحث عن الخلاص لا يمكن أن تتولد من مجرد علاقة تبادل للمنفعة بين الإنسان والطبيعة، ويؤكد بيجوفيتش أن كل الفنون تحكي قصة وحيدة، وتدور حولها وهي: غربة الإنسان عن الطبيعة، وهنا من الطبيعي أن تختلف إجابة العلم عن إجابة الفن حول أصل الإنسان؛ فالعلم يعطينا صورة فوتوغرافية دقيقة؛ لكنها تفتقد إلى جوهر الإنسان أما الفن فيرينا الإنسان قادماً من المجهول فبينما يشير العلم إلى داروين يشير الفن إلى مايكل أنجلو وشخوصه على كنيسة سيكتسين.[١]

إن ظاهرة الحياة الجوانية الملازمة للإنسان تظل مستعصية على التفسير العلمي، وواضح أنها نزلت من السماء نزولاً وليست نتاج التطور فهي متعالية ومفارقة للحياة البرانية تماماً.

٢- التدين واللجوء الميتافزيقي لتفسير الوجود

لقد كان التدين واللجوء للقوة الغيبية جزءًا أصيلًا من ثقافة الإنسان البدائي عند تعرضه للأخطار والتحديات؛ لكي ينتصر بها على الطبيعة،

---

(١) المصدر السابق نفسه الصفحة ٦٨.

وهو ما يفسر أن الإنسان منذ فجر وجوده كان يؤمن بقوة غيبية مفارقة للطبيعة وقادرة على التحكم بها.

يرى بيجوفيتش أنه لا يوجد في حياة الحيوان شيء ما؛ يشبه الانسان لا من قريب ولا من بعيد، فالسحر والدين، أو المحرمات والمحظورات، أو الفن أو الكوابح الأخلاقية، مما يحيط في حياة الإنسان لا فيما قبل التاريخ ولا في الحياة المعاصرة، فمثًلا إنَّ حياة النحل رغم ما توصف به في دقة التنظيم؛ لكنها لا تقبل في عضويتها أي عنصر عديم الفائدة من الضعفاء، وحتى الذكور يُطردون من الخلية، حتى أنَّ ممارسة الزراعة كانت مرتبطة بالتضحية، والتضحية عند المجتمعات المكسيكية البدائية، والقرطاجيون كانوا يصلون من أجل المطر، فقد وجدت التضحية في كل المجتمعات البشرية، وظلت طبيعتها غير مُسوَّغة بل غامضة، ممّا يُشكِّل دليلًا واضحًا أنها لا تنتمي للوجود المادي، أما في الجانب الحيواني الأكثر تطوراً لم نجد أي أثر للعبادة والطقوس.[١]

٣- الحس الجمالي لدى الإنسان لتلبية احتياج عالم الروح

لقد كانت قيمة الجمال التي تفرد العنصر الإنساني بتقديرها؛ مركزيةً في فلسفة بيجوفيتش؛ وهو ينقض عرى المادية الجدلية في تفسيرها للكينونة الإنسانية.

يقول بيجوفيتش أليس من السخرية أن الإنسان البدائي الذي استمتع منذ ١٤ ألف سنة مضت بالزهور وبأشكال الحيوانات، ثم رسم ذلك على

(١) نفس المصدر السابق الصفحة ٧٥

جدران الكهوف، كان أقرب إلى الإنسان الحقيقي من الإنسان الأبيقوري الذي يعيش فقط لإشباع شهوته، ويفكر كل يوم بمتع جديدة أو الإنسان الذي يعيش اليوم في المدن الحديثة معزولاً في قفص من الاسمنت المسلح محروماً من أبسط المشاعر والأحاسيس الجمالية.[١]

٤- القانون والمحرمات صناعة إنسانية محضة

تكمن فرادة الإنسان أنه كائن يسعى للعيش ضمن منظومة من القوانين والمحرمات والحدود المقدسة؛ لضبط السلوك على عكس باقي المخلوقات، وهذا نراه حتى في أكثر المجتمعات إلحاداً بغض النظر عن المرجعية التي يستمد منها هذه المحرمات والمقدسات.

وهنا يرى بيجوفيتش أن الشيوع الدائم للحاجة إلى التطهر من الشر، والوقوع الدائم في خطيئة لمس الأشياء المحظورة أو النظر إليها أنشأ لدى الإنسان نظامًا كاملًا من المحظورات شمل أوجه الحياة البدائية المختلفة، وقد أُطلق على هذا اسم التابو، وكان التابو في الأصل حظر ذو طبيعة أخلاقية ظهر مبكراً في حياة الشعوب البدائية، فلو كنا حقاً من أبناء طبيعة من جنس هذا العالم فلن يبدو لنا شيء نجس ولا مقدس فهذه أفكار مناقضة للعالم الذي نعرفه، وهي بالوقت نفسه برهان على أن لنا أصلاً آخر لا نستطيع أن نتذكر شيئاً عنه، وهو ما يدفعنا للبحث الدائم عن الخلاص.[٢]

---

(١) نفس المرجع السابق الصفحة ٨٠

(٢) نفس المرجع السابق الصفحة ٧٨

٥- الخوف والقلق من الاهتمام بالوجود

الخوف والقلق الذي يعتري نفْسَ الإنسان من الأسئلة الوجودية شعورٌ لا يقابله أي شعور لدى باقي المخلوقات، ولا ينتمي لعالم الخوف المادي، والخشية من الخطر الملموس من الكوارث أو الوحوش، وهو ما يشكل مدخلاً لتفسير الكينونة الإنسانية وهذه الأخيرة عند بيجوفيتش تختلف تماماً عن الكينونة المتخيلة في الفلسفة المادية الألحادية، وتدعونا لاكتشاف الجانب الجواني فينا، والذي ينضح بفيض من المشاعر والتساؤلات التي تنشأ من عالم مختلف عن العالم البراني، والتي تدفعه باستمرارية للبحث عن الخلاص خارج المنظومة المادية.

يرى بيجوفيتش فرقاً جوهرياً في طريقة حياة الإنسان التي يمارسها لا بوصفه ابنًا ممتزجًا في الطبيعة، وإنما بوصفه مغتربًا عنها، يتملكه شعور الخوف؛ لكنه ليس خوفاً بيولوجياً مرتبطاً بمشاهدة خطر مادي كالذي يستشعر الحيوان إنما هو خوف روحي وجودي بدائي، موصول بأسرار الوجود الإنساني وألغازه، إنه خوف ممزوج بحب الاطلاع والدهشة والنفور، ويؤكد أن هذه المشاعر مركوزة في أعماق ثقافتنا وفنوننا.[١]

٦- اللعب للتعبير عن العالم الداخلي

ليست وظيفة اللعب عند الإنسان هي تدريب البنية الجسدية والمحافظة على اللياقة فحسب؛ بل إنها تتعدى الاحتياج المادي إلى

---

(١) المرجع السابق الصفة ٧٧

الاحتياج الروحي متمثِّلًا في تحصيل معان أخرى تتعلق بتقدير الذات والتعبير عن المكنون الإنساني، والحصول على التقدير والتميز التي هي في جوهرها احتياجات جوانية تتجاوز الحاجات المادية من الطعام والشراب والجنس.

لقد كشف بيجوفيتش فروقاً جوهرية بين لعب الحيوان ولعب الإنسان؛ فالحيوانات تلعب لاحتياجات بيولوجية كاللعب الجنسي أو تعليم صغارها الصيد أم لعب الإنسان فهو لعب حر لعب غير ملتزم يتضمن الوعي باللعبة مما يعطيه معنى روحياً.[١]

حتى أن اللعب عند الإنسان متسق مع فكرة التطلع للجمال، فعندما تنظر لمباريات كرة القدم تخال نفسك أمام لوحة فنية في الإبداع؛ وكذلك بالنسبة للمشاهد فالنظر إلى اللعب بحد ذاته متعة عند الإنسان غير موجودة عند الحيوان، فلم نلحظ في سلوك الحيوانات من يتابع لعب الحيوانات الأخرى وينشد لمتابعته وتشجيعه.

---

(١) المرجع السابق الصفحة ٨١

ثانياً: الجدل المادي بين مثالية الفكر والعودة إلى الواقع

تعتبر المادية الجدلية الأساس المعرفي والفلسفي الذي يقوم عليه الفكر الإلحادي، وذلك من خلال نزعتها إلى تفسير الكون بنشأته وحركته تفسيراً مادياً بحتاً وفق عدد من المبادئ:

- إن العالَم مادي بطبيعته، وإنَّ مختلف ظاهراته ليست سوى أوجه مختلفة من أوجه المادة المتحركة وذلك على عكس المثالية -والتي يختصرها هيغل هنا- أنها الفكرة التي تنظر إلى العالم بوصفه تجسيداً للمطلق أو الروحي الكلي؛ لكن إثبات مادية العالم لا يتوقف هنا؛ بل يقترن بالقول إن حركة المادة والعالم تحصل بموجب قوانين ضرورية، وهي القوانين التي يثبتها منهج الديالكتيك في علاقة الظواهر وتشارطها.
- المبدأ القائل إن العالم المادي هو واقع موضوعي قائم خارج وعينا به وبمعزل عنه.
- وأن المادة أو الكون أو الطبيعة، هي المعطى الأولي في حين أن الوعي أو الفكر هو المعطى الثاني المشتق من نتاج المادة، ولدرجة عليا من درجات تطورها وكمالها.

۞ المبدأ القائل إن العالم، وقوانينه، قابل لأنْ يعرف معرفة كاملة بقوانينه هي معرفة مقبولة عندما تؤكدها التجربة والممارسة.[١]

وهنا سنناقش المبدأ الثاني للفكر المادي إذ تعتبر مسألة العلاقة بين الواقع والفكر من أهم المباحث الفلسفية التي يقع فيها الخلاف بين الاتجاه المثالي الذي يجعل من العمل الفكري والتصورات الذهنية مسألة سابقة على تشكل الواقع وبين أصحاب الاتجاه الواقعي المادي الذي يرى أن الأفكار هي نتيجة لحركة المادة والواقع، وهي من أهم المقولات التي تستند إليها المادية الجدلية في تفسيرها لنشوء الأديان والأفكار الكبرى والفلسفة باعتبارها نتيجة ومُفرَزة للصراع المادي.

ومن هنا جاءت[٢] عدمية "فيورباخ" في كتابه "أصل الأديان" عندما رأى أنّ أصل الأديان يعود لما يخلقه الإنسان في وهمه من صورة عن الإله حين قال ما معناه: "كيفما يكن قلبك يكن إلهك"،[٣] وعليه فإنّه فسّر عبادة الإنسان لمظاهر الطبيعة بأنَّه ناتج عن حاجته وخوفه منها، ويقدّم القرابين لها كما كان يفعل المصريون من تقديم البنات الجميلات لنهر النيل.

---

(١) راجع الموسوعة الفلسفية العربية – معهد الإنماء العربي – المجلد الثاني- الطبعة الأولى – ص ١١٩٣ – ١١٩٤.

(٢) لودفيغ فويرباخ فيلسوف أنثروبولوجيّ ألماني مشهورٌ بكتابه «جوهر المسيحيّة»، والذي نقد فيه المسيحية، وكان مؤثّراً للغاية بأجيال من المفكرين اللاحقين، بما فيهم كارل ماركس، وفريدريك أنجلز، وريتشارد فاغنر، وفريدريك نيتشه دعا فويرباخ إلى الليبرالية والإلحاد والمادية.

(٣) راجع كتاب أصل الأديان فيورباخ، ترجمة ودراسة، د. أحمد عبد الحليم عطية، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات ولنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م، ص ٢١.

حتى قال "فيورباخ" إنّ صفات الإله عند الإلهَين هي صفات مستنسخة من صفات الطبيعة نفسها[١].

١- الاتساق النظري والتناقض العملي

يرى بيجوفيتش أن الفكر الماركسي المادي متسق مع نفسه من حيث البناء النظري المحكم؛ لكن هذا الاتساق سرعان ما تبدو فيه الثغرات وعلامات التداعي والسقوط عندما ينزل إلى محك الواقع التجريبي، ويخضع للاختبار في مشرح التاريخ، ولإثبات هذه الرؤية يمكن أن نصف البناء النظري للفكر المادي ثم نختبر هذه الأفكار بدراسة التجارب التاريخية[٢].

٢- الفكر المادي بين الانسجام النظري والتناقض الواقعي

- تعتقد الماركسية أن الإنسان نِتاج بيئته سواء من حيث هو كائن بيولوجي أو كائن اجتماعي.
- وان ظروفه الاجتماعية تحدد ضميره وليس العكس.
- وتعتقد أن الأحداث التاريخية لا تنتجها الأفكار ولا الأعمال الإرادية للناس؛ وإنما ظروف موضوعية هي ما يصنع التاريخ تعمل بشكل مستقلة عن الناس.
- فالعبودية مثلاً لم يتم القضاء عليها لأسباب أخلاقية وإنما لعدم مناسبتها مع المصالح الاقتصادية.

---

(١) نفس المصدر السابق الصفحة ٢٩.

(٢) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ترجمة: محمد يوسف عدس)، بيروت: طبعة دار الشرق القاهرة، الطبعة ١٧، ٢٠٠٠، ص ٣٣٥.

وهنا يأتي الرد العميق من قبل بيجوفيتش على هذا الصرح الفكري الذي تتيه به الماركسية حيث يذهب بيجوفتش -وبناءً على نفي علاقة الأفكار بالأحداث والتاريخ ونفي تأثيره بدور الإنسان الاجتماعي عند الماركسية المادية والتي تستوجب أن نفترض أن قيام المجتمع الاشتراكي يجب ألا يعتمد على الأحزاب السياسية ونشر الأفكار المادية- إلى أنَّ قيام هذا المجتمع مرهون بتطور قوى الإنتاج الاقتصادية وقوى الإنتاج، واعتبار الثورة نتاج التطورات التقنية، وجيش العمال الصناعيين على العلاقات القائمة.[١]

ثم يشرع في بيان الممارسة العملية للماركسية المنفصلة عن النظرية، كممارسة الأحزاب الشيوعية ما سماه ترويض البشر، وظهور القيادات والتنظيمات للتأثير في البناء الفكري للمجتمع، وهذا يعني اشتغال أتباع الماركسية على وعي الناس؛ ونتيجة لذلك انعكاس البنية الفوقية على البنية التحتية، وفي الوقت نفسه نفي الحتمية التاريخية ممارستيّاً بكون الفرد فاعلا في التاريخ، ويضيف أن البلدان التي ظهرت فيها الشيوعية بلدان غير صناعية وليس فيها طبقة عمالة، بل أكثر من ذلك؛ فالشيوعيون هم الذين يعملون على إنشاء الصناعة في بعض الدول المتخلفة، ويرى أن الحياة العملية أثبتت أن الثورة نتاج وجود حزب شيوعي قوي أو تدخل أجنبي؛ وليس ظروفٍ موضوعيةٍ.[٢]

---

(١) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ترجمة: محمد يوسف عدس)، بيروت: مؤسسة العلم الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص ٣٥١.

(٢) راجع نفس المصدر السابق ص ٣٥٦.

إضافة إلى كون الماركسية قبلت بمبادئ الثورة الفرنسية وهي مثالية، وأخيراً يقوم بتفكيك مصطلح الاستغلال بما هو مصطلح جوهري في النظرية الماركسية؛ ليخلص إلى أنه يحتوي في باطنه صراع الشر مع الخير، وهذه قيم روحية مثالية غير مادية.[١]

(١) العربي الموصار، جدل الأفكار والواقع عند علي عزت بيجوفيتش من خلال كتاب الإسلام بين الشرق والغرب (رؤية نقدية تجاوزيه) مجلة رؤى سياسية صادرة عن مركز أفاق للدراسات والتكوين المتخصص.

ثالثاً: قصور العلموية في التعبير عن عالم الإنسان الجواني

يقولون إن العلم يجيبنا عن سؤال كيف نعيش؟ وهو سؤال يعبر عن عالمنا المادي البراني، والدين يجيبنا عن سؤال لماذا نعيش؟ وهو السؤال النابع من عالمنا الجواني؛ لكن رغم ذلك هناك أسئلة كثيرة عن كيف نعيش يعجز العلم عن تقديم إجابة لها فالعلم لا يمكن أن يبرر مواقفنا الأخلاقية أو أن يعايرها في الخيرية والشر، ولا يجيبنا عن مبرر الإنجاب والتكاثر ولا التضحية من أجل الأخرين، وهو ما يفتح ثغرات كبيرة في جدار العلم ينفي قدرته على الإحاطة بالإجابة عن تساؤلات الإنسان العميقة في معنى الحياة وغاياتها الكبرى.

١- اتساع اللغة أمام العلم وقصورها أمام الروح

يقارن بيجوفيتش بين العلم والفن في حاجة كل منهما للغة ويثبت أن العلم لم يعاني أبداً من أزمة استهلاك المفردات للوصول إلى المعنى الذي يريده؛ لكن الفن الذي يعبر عن عالم الإنسان الجواني هو في أزمة مزمنة مع اللغة وقصورها عن استيعاب المعاني التي يريد أن يصل إليها.

فيقول "إن العلم مهما بلغ من التعقيد والعمق لا يمكن أن يشعر بقصور اللغة كأداة للتعبير عن نفسه، أما الفن فبسبب خاصيته الروحية دائم

البحث عن وسيلة أخرى للتعبير عن لغة إضافية؛ فاللغة يد المخ والعقل والمخ جزء من كياننا الجسمي وجزء من الكيان الفاني.

لقد أصبحت الكلمات والحروف أعظم أدوات العلم التي تساعد الإنسان في استمرار خبرته العلمية، إن لركود الفن والتوسع في التعليم كما حددته الحضارة المادية خاصيةً يتميز بها إلحاد الدولة فقد كانت روسيا في القرن التاسع عشر دولة فقيرة ونصف جاهلة ومع ذلك قدمت للعلم بوشكين وتشيكوف ودستوفيسكي وتشايكوفيسكي ورمسكي كورساكوف أما اليوم فلا تستطيع الإشارة إلى فنان واحد على مستوى الكتاب الرواد.

وإن تطابق الكتابة مع اللغة مع الفكر وكل ذلك هو من صيغ الذكاء العقلي للإنسان؛ لكن اللغة عاجزة التعبير عن حركة واحدة من حركات الروح، حتى أنَّ تعريف الفن تعريفاً عقلانياً كان محاولة مخفقة كما أخفقت محاولة تعريف الحياة، كما أنه ليس هناك معادل لغوي لسميفونية بتهوفن التاسعة، ولا يمكن ترجمة هاملت إلى لغة العلم أو تقليص الدراما إلى مجموعة قضايا في علم النفس والأخلاق؛ لذلك كان الرسم والرقص والموسيقا أدوات تعبيرية عن العالم الجواني للإنسان حتى الصلاة التي هي لغة الروح تجتمع فيها الموسيقى والحركات الجسدية مع اللغة لتعبير عن مكنون الروح"[1].

---

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ١٤٧.

٢- كتابَي إيمانويل كانط دليل دامغ على التركيب الثاني للإنسان (المادي والميتافيزيقي)

في فلسفته النقدية أنتج الفيلسوف الألماني إيمانويل كنط كتابين الأول في نقد العقل التجريبي؛ إذ نقد كانط العقل المادي الذي لا يؤمن إلا بالتجربة المادية كطريق للمعرفة وأثبت أنه ثمة كثير من الحقائق التي لا يمكن إثباتها بالتجربة، وفي الكتاب الثاني كان النقد للعقل المحض الذي يرى أن المعرفة يمكن تحصيلها من خلال المفاهيم الميتافزيقية المجردة بما فيها الدين والأخلاق وبدون تجربة، وهنا عالج كانط جانب القصور في هذا العقل وبين أن الكثير من القضايا المادية لا يمكن إثباتها بالميتافيزيقا، وهنا يرى بيجوفيتش أن هذين الكتابيين لا يشكلان تناقضاً في فلسفة كانط بل هما أصدق الأدلة على ثنائية الإنسان المادية والجوانية والمثالية والواقعية.

أهم أفكار كتاب نقد العقل التجريبي	نقد العقل المحض "المجرد"
أفكار كتاب نقد العقل التجريبي هي نفسها الأفكار التي نفاها كانط في كتابه نقد العقل المحض حيث عاد وأبرز قصور العقل المادي أمام أسئلة الأخلاق، وبرهن أن العلم المادي لا يُشكِّلُ دليلاً كافياً على صحة اعتقاد الملحدين.	في نقد العقل المحض نقد كانط العقل المجرد ونسف كانط الأفكار الدينية في الألوهية والخلود والحرية.

في نقد العقل التجريبي يبرُز كانط الإنسان والمفكر.	في نقد العقل المجرد يبرز كانط العالم المنطقي.
وفي نقد العقل التجريبي تبرز مشاعر والخبرة والآمال التي تسيطر على حياة الإنسان والأسئلة الجوانية الوجودية مثل سؤال الغاية والمصير والنشأة.	يركز نقد العقل المجرد على النتيجة المنطقية للعلم المادي.
ونقد العقل التجريبي هو ثمرة المعرفة الجوانية واليقين الذي استقر في الروح وإجابة عن التساؤلات حول الكون في كليته.	نقد العقل المجرد هو نتيجة نظرة موضوعية للواقع وإدراك للواقع كما هو وكما يبدو.

يرى بيجوفيتش بأنَّ هذين النقدين لا يلغي أحدهما الآخر؛ ولكنهما يقفان جنباً إلى جنب في شموخهما، مؤكدين بطريقتهما الخاصة ازدواجية عالم الإنسان.[١]

٣- الدين بلا علم خرافة والعلم بلا دين إلحاد

يعتقد بيجوفيتش أن العلاقة بين الدين والعلم وقع فيه التعسف بين الإفراط والتفريط بين من يحاولون أن يفسروا الحياة كلها بالعلم حتى الحياة الجوانية للإنسان، وبين من يحاولون تفسير الظواهر الطبيعية بالدين وكلا

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ١٨٩ -١٩٠.

الاتجاهين اتجاهيين خرافيَّين لقد وقع التعامل مع قضية العلم وقعت بين الإفراط في الثقة المطلقة وبين التفريط بأهميته وإسناده للإيمان.[١]

إن العلاقة بين الدين والعلم في رأي بيجوفيتش هي علاقة اتساق وتكامل ولا يمكن ان يصطدما إلا بإقحام أحدهما في مكان الآخر؛ فعندما يتحول الدين إلى خرافة هنا يصطدم مع العلم؛ لأن الدين الصحيح متسق مع العلم والعلم يستطيع أن يساعد الدين من الانزلاق إلى الخرافة وعندما ينفصل العلم عن الدين فإن العلم يجنح للإلحاد، ويرتكس الدين في الخرافة.

وهذا لا يعني أن العلم بريء من الخرافة فعندما يتم نقل العلم من المجال الطبيعي المادي بمناهجه التجريبية والتحليلية إلى مجال الحياة الجوانية فإنه سيقع في الخرافة، وستتحول نظرياته العلمية إلى مجرد مواقف إيديولوجية وعندها سيقضي علم البيولوجيا على الحياة وعلم النفس على النفس وعلم الأنثروبولوجي على الشخصية الإنسانية ويتحول العلم إلى سلاح للقضاء على الإنسان لإعادة تشكيله من جديد.

إن العلم المادي يقضي على الإنسان عندما يقرر هويته بأنه مجرد حيوان، والأخلاق نوع من الأنانية الضيقة، يعني الأخلاق نفي للأخلاق وهكذا انتهى البحث العلمي في حقل العلوم الإنسانية إلى سلسلة من

---

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ٣٤٤ .

الإنكارات؛ بدأت من إنكار الله على يد نتشة إلى إنكار الإنسان على يد دارون ثم إنكار الحياة على يد شوبنهاور، وانتهى العلم إلى أن الحياة مجرد لعبة وتبادل التفاعل لقوى الجزئيات، فلم يجد العقل في هذا الكون سوى نفسه محكوماً بالحركة الآلية وقانون السببية.

٤- الضربة القاضية لصنم العلم

ربما يتهرب أهل العلم المادي من الأسئلة المتعلقة بالعالم الجواني للإنسان، ويسهل عليهم الإنكار لوجوده أصلاً وهنا يقوم بيجوفيتش بتوجيه الضربة القاصمة من خلال توجيه الأسئلة التي هي من جوهر اختصاص العلم المادي وهو السؤال عن معنى الحياة.

فيقول في سنة ١٩٥٠ وضع العالم "أندريه جورج" سؤلاً واحداً لعلماء البيولوجيا والأطباء وعلماء الطبيعة هو: ماهي الحياة وكانت كل الإجابات حذرة وغير محددة؛ لكن أفضل عالمين أجابا بالتالي: "يظل السر كاملاً، فنقص معلوماتنا تجعل من كل تفسير للحياة أقل وضوحاً من معرفتنا الغريزية بها" و "حتى الآن لا نعرف على وجه التحديد ماهية الحياة.[١]

---

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص٨٤ .

رابعاً: هل يمكن تأسيس الأخلاق بلا دين

مع ظهور العقل الحديث في عصر التنوير دُحرجت فكرة الإيمان لتحل محلها فكرة الطبيعانية ومن هنا فُسِّر الكون والوجود تفسيراً آلياً ميكانيكاً، ونُحِّي مفهوم الغائية من الوجود الإنساني؛ لتتولد الفلسفة العدمية والعبثية بعد إنكار الغائية، وحلت أسطورة سيزف بدلاً من الدين لتفسير الغائية من الوجود الإنساني.

لقد أصابت نظرية نيوتن الفكر الغربي بالدوار؛ وعليه بدأ النظر للكون بناء على العلاقة السببية وليس بناء على أغراض الله تعالى منه وهنا غادر الناس التفسير الديني للسلوك الإنساني كما غادروا الدين في تفسير الكون فكيف يمكن تأسيس الأخلاق بلا دين.[١]

١- الاتجاهات المادية في تأسيس الأخلاق

وهنا برزت بعض الاتجاهات الفلسفية لتعيد تأسيس الأخلاق على أسس طبيعية بعد تجاوز الدين:

---

(١) تومس هوبز، اللفياثان، الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة ديانا حبيب حرب و بشرى صعب، ط دار الفارابي ـ ٢٠١١، راجع القسم الثاني، في الحكومة ص ١٧٥ - ٣٤٨.

الاتجاه الأول: أخلاق الطبيعة البشرية

ويمثلها توماس هوبز حيث يتصور هوبز: أن الإنسان أناني بطبيعته قبل ظهور الدولة والسلطة ولا يملك الإنسان غريزة تدفعه للتعاون والاجتماع؛ لأن أصل علاقته "الإنسان ذئب الإنسان" وبناء عليه الناس أمامه في حالة حرب دائمة او خوف دائمة من أن يهاجم بعضهم بعضاً، فكيف يمكن أن نؤسس الأخلاق وهنا يطرح هوبز أول قاعدة أخلاقية وهي ضرورة طلب السلم؛ وذلك بالتنازل لسلطة حيادية مركزية فتحل الحياة السياسية محل الحياة الطبيعية.[١]

الاتجاه الثاني: المذهب النفعي

ظهرت الفلسفة النفعية في الأخلاق مع جيرمي بنثام ١٧٤٨- ١٨٣٢، وجون ستيوارت ميل ١٨٠٦ -١٩٧٣ -لندن، وتنتشر في بريطانيا والولايات المتحدة، وقد حولت الأخلاق إلى بحث وضعي بعد أن كان حدسياً عقلياً مع كانط.

تقوم الفلسفة النفعية المادية على أن الأفكار تستمد قيمتها من فائدتها ومنفعتها.

- تمتد النفعية للإيبقوريين الذين قرنوا السعادة باللذة، عكس الرواقيين الذين ربطوا السعادة بالفضيلة الروحية.

---

(١)

- لكن هناك فرق بين اللذة والسعادة، فاللذة ربما تنحدر إلى الألم مثل السادية والمازوشية.
- الفعل يكون أخلاقياً إذا أدى لمنفعة أكبر وَفقاً لمبدأ السعادة، والسعادة هي الغاية والباعث الأساسي للسلوك الإنساني.
- الألم هو الشرّ، واللذة هي الخير، والفلسفة التي تحكم الاقتصاد والسياسة اليوم؛ لكن وقع الخلاف حول المنفعة واللذة بين بنتام وبين ميل هل هي فردية جماعية، وهل اللذة هي حسية أم عقلية.[١]

ويصف بيجوفيتش مذهب أبيقور وهولباخ القائم على اللذة فيقول في ضوء هذه الحسبة يحول الإنسان مشاعر الألم واللذة وهي حقائق بيولوجية حيوانية داروينية إلى مفهوم الخير والشر[٢]، وهنا يسأل بيجوفيتش عن اللذة الموجودة في التضحية والصيام والتبتل ونكران الذات وكبح الشهوات من أين جاء بها الإنسان الباحث عن اللذة، ومن هنا كان الحفاظ على المجانين والشيوخ مع أنه عمل خال من اللذة عملاً أخلاقياً رغم أن الجريمة هي أكثر عمل مربح للإنسان.[٣]

---

(١) راجع رضا زيدان، أزمة الفلسفة الأخلاقية ص ٨٣، ط ٢٠٢١١ مركز دلائل، الرياض

(٢) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ٩٥

(٣) المرجع السابق الصفحة.

الاتجاه الثالث: مذهب الواجب

وهو مذهب الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط ١٧٢٤ – ١٨٠٤

يقوم مذهب كانط على فكرة الإلزام واعتبرأنَّ كلاً من المذهب الطبيعي والنفعي خالٍ من فكرة الإلزام ورفض أن يكون مبدأ اللذة او السعادة هو معيار الفعل الأخلاقي؛ لأن كل فعل سيخضع للأهواء، والأهواء متنوعة وهذا يعني الصراع بسبب الخضوع للحالة المزاجية.

يقيم كانط فلسفته الأخلاقية على المبادئ القبلية السابقة على التجريب والمنفعة[١]، ويرفض كانط اللاهوت والميتافيزيقا أساساً للأخلاق بحجة "أن إيماننا بالله ينبع من وعينا الأخلاقي وليس العكس" وهنا لا يبقى من أساس إلا الإرادة الخيرة وهنا لا يبقى للأخلاق الواجبية التي يرد بها كانط على بثنام في مذهبه النفعي إلا العقلي الخالص النظري[٢] بدون أي سند رباني متجاوز للإنسان بحيث تكون مرجعية الأخلاق ذاتية من الإنسان نفسه وليست موضوعية من الإله وهو ما يؤسس لفكرة نسبية القيم و عدم ثباتها.

لكن بيجوفيتش ينفي أن يكون العقل قادراً على تأسيس الأخلاق، وأن ما يؤسسه العقل من قيم ما هي إلا أخلاق اجتماعية أو قواعد سلوكية لازمة للمحافظة على جماعة معينة، وهي في واقع الأمر نوع من النظام الاجتماعي؛ لذلك لا يمكن القول بأن الأخلاق نتاج العقل فالعقل يستطيع

---

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٤٧ .

(٢) راجع رضا زيدان، أزمة الفلسفة الأخلاقية، ت ٢٠٢١ مركز دلائل، الرياض ص١٠٤ – ١١٣.

اختبار العلاقات بين الأشياء؛ لكنه لا يستطيع إصدار حكمٍ معياريٍ قيميٍ عندما تكون القضية هي استحسان أو استنكار فعل أخلاقي.

مثل تبرير عدم معاقبة من ارتكب جريمة عن طريق الخطأ، ويختم بيجوفيتش بأن العلم والتقدم العلمي لا يمكنه أن يجعل الأخلاق والدين غير ضروريين؛ فالعلم لا يعلِّم الناس كيف يحيون ولا من شأنه أن يقدم لنا معايير قيمية؛ ذلك لأن القيم التي تسمو بالحياة الجوانية إلى مستوى الحياة الإنسانية تبقى مجهولة وغير مفهومة بدون دين؛ لأن الدين مدخل إلى عالم فوق هذا العالم والأخلاق هي معناه.[١]

إن ديفيد هيوم ينفي علاقة العقل بالقرارات الأخلاقية فيقول: "الجريمة بالنسبة لنا ليست أكثر من عدد من الدوافع والأفكار أو الأفعال المنسوبة إلى شخص معين ويمكننا أن نبحث هذه العلاقة او نفسر أصل الفعل وطريقة أدائه، فقط في اللحظة التي ندع لعواطفنا أن تتحدث يظهر الاستنكار ونصف العمل بأنه شر أخلاقي ".[٢]

٢- الأخلاق بلا دين مستحيلة نظرياً ممكنة عملياً.

في هذه الزاوية يفصل علي عزت بيجوفيتش بين النظرية والتطبيق ويتجنب الوقوع في فخ نفي الأخلاق بمجرد نفي الدين في الواقع، فنحن

---

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ١٨٦- ١٨٨

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٨٦.

يمكن أن نجد شخصاً ملحداً وعنده أخلاق من الناحية العملية لكن لا يمكن أن تتسق أي نظرية أخلاقية مع فكرة الإلحاد وهو جزء من تناقض الفكر المادي بين النظرية والتطبيق والتناقض بين المثال وبين المثل.

وهنا يقول بيجوفيتش: "يوجد ملحدون على خلق لكن لا يوجد إلحاد أخلاقي"؛ فالأخلاق بلا دين مستحيلة نظرياً كمبدأ، بينما الأخلاق العملية يمكن لها أن توجد مع الدين بسبب قصورها "أي عاجزة عن بناء منظومة بديلة عن الأخلاق مستمدة من الإلحاد بوصفه بديلاً"[١]؛ ولأننا يجب ألا نفترض أن الملحدين غير متناقضين مع مبادئهم التي يؤمنون بها.

وهنا يعود بيجوفيتش لأصل أطروحته في التفريق بين الخلق والتطور ويقول "إذا لم نتبين الفرق بين مذهب الخلق وما يترتب عليه من حرية وعفوية ووعي وفردية ومذهب التطور وما يشتمل عليه من سببية وقصور ذاتي وقصور في الطاقة واتساق وحتمية فلن يتم تأسيس الأخلاق على أساس التوفيق بين الواجب الذي هو المصطلح الأساسي في عالم الأخلاق والمصلحة كمصطلح سياسي.

فالواجب والمصلحة وإن كانتا متعارضتين فإنهما القوتان المحركتان للنشاط الإنساني ولا يمكن الخلط بينهما فالواجب دائما يتجاوز المصلحة."[٢]

---

(١) المصدر السابق الصفحة ٢١٠.

(٢) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ١٧٦.

فإذا كان العالم يوجد في حدود الزمان والمكان الذي نعرف والطبيعة لا تبالي بالعدالة والظلم وجدت أم لم توجد فإن تضحية البطل بنفسه لإنقاذ شعب كامل تكون بلا معنى؛ لكن لماذا نفعلها لا شك أنها تنتمي إلى عالم آخر غير عالمنا الدنيوي عالم يتميز بقوانين مغايرة للعالم الطبيعي؛ وعلى ذلك يمكن إعادة تفسير معنى الهزيمة والفوز لا على أساس الفوز الدنيوي وإنما على أساس الفوز الأخروي كما جاء في سورة البروج.

وهنا يمكن تفسير النفاق في ادعاء تبني الأخلاق من بعض الأنظمة القمعية التي تمتلك سجوناً ومعتقلات وفي الوقت نفسه تسمح بصوت إعلامي ناقد حر هو دليل على قيمية أخلاقية مصلحية.

لكن من حيث التوافق النظري فإن الأخلاق تتناقض مع التفسير العقلاني الذي يستند له الإلحاد فالتطور الذي يخضع له الإنسان هو تطور من حيث البنية المادية وليس من حيث السمو الروحي والبقاء للأصلح هو من حيث الصلاح المادي للوظائف العضوية وليس الصلاح الأخلاقي؛ ولأن السلوك الأخلاقي حتى يكون له معنى يجب أن نثبت واجب الوجود وهو هنا الإله الذي يمنح الثواب والعقاب، ويعطي القيمة للفعل فإذا انتفى واجب الوجود انتفى معنى الأخلاق وصار الالتزام بها مجرد عبث.

٣- إحلال مفهوم الضمير بدلاً من الله

عندما حاول الماديون بناء نظام أخلاقي اقترحوا اللجوء إلى الضمير[١] بدلاً من الخوف من الله كحافز لاستقامة السلوك.

---

(١) يعرف هولباخ الضمير بأنه الوعي بالتأثير المحتمل لسلوكنا على الناس الذين يحيطون بنا وعلينا أيضاً، منقول من كتاب الإسلام بين الشرق والغرب ص ١٩٦

وهنا ينقل بيجوفيتش عن أحد الملحدين وهو "فوكو بافيتشيفيتش": "إنني أزعم أن الإلحاد هو السمو بالإنسان وبالأخلاق الإنسانية فإذا سمعت صوتاً بداخلي يقول لي لا تسرق لا تقتل إذاً أنا أشعر بذلك في باطني، ولم أستخلصه من أي نوع من أنواع المطلقات الاجتماعية او الدينية؛ فهذا يعني أنني تصرفت بناء على استبصار في وعيي وضميري".

إنه الإيمان بالإنسان بدلاً من الله ويقول بيجوفيتش إن الملاحدة من أجل أن يخرجوا من مأزق العدمية الأخلاقية أحلوا الإنسان بديلاً عن الله وآمنوا به معياراً للأخلاق وهذا بحد ذاته دين وهو تناقض مع فلسفة الإلحاد نفسها التي يفتربها ألا تؤمن بالإنسان حتى، وهذا ما يؤكده ماركس بأن الرجوع للإنسان والإنسانية أو الوعي والضمير وما شابه ذلك إنما ينطوي على مثالية شأنها شأن الدين تماماً.[١]

والمطب الأكبر لمرجعية الضمير أنها مرجعية ذاتية غير موضوعية؛ ونتيجة لذلك ماذا سيكون الموقف لو كان النداء من الضمير اقتل اسرق .....

ولم يتسق مع الفكر المادي في نظرته للأخلاق إلا نتشه[٢] الذي يذهب إلى أن أخلاق الرحمة والإحسان والصبر هي حيلة ابتكرها الضعفاء؛ لكي يخدعوا بها الأقوياء؛ ولكي يأخذوا منهم مكاسب ومنافع، إن الأخلاق هي

---

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ٢٠٨ -٢٠٩

(٢) فريدريش فيلهيلم نيتشه ١٨٤٤ – ١٩٠٠ فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية، كان لعمله تأثير عميق في الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث.

من صنع الفقراء، وقليل الحيلة ومن لا قوة لهم، فهم عندما يفقدون كل وسائل الصراع والمقاومة، يلجؤون إلى حيلة الأخلاق لكي يحصلوا بها ما عند الأغنياء والأقوياء[١]، وهنا نتأكد أن ما فعله نتشه هو أنه طبق قوانين البيولوجية ونتائجها على المجتمع الإنساني، وكانت النتيجة وفق بيجوفيتش نبذ الحب، والرحمة، وتبرير العنف، والكراهية.[٢]

وهذا ما ينتهي به إلى كلام دوستويفسكي: "إذا لم يكن الإله موجوداً فكل شيء مباح" وهنا يعرض بيجوفيتش بسؤال هو هل من حق الملحد أن يعظ باسم الأخلاق وإنما هل يمكنه أن يفعل ذلك ويبقى ملحداً داخل دائرته المادية.

ينتهي بيجوفيتش إلى أن إحلال المذاهب الأخلاقية الإنسانية الملحدة مكان الدين لبناء الأخلاق ضرب من الاستحالة؛ لأنه إذا انتفى وجود الله انتفى وجود الإنسان وإذا انتفى وجود الإنسان انتفى وجود الإنسانية وتصبح الأخلاق حينها عبارة فارغة بلا مضمون.[٣]

---

(١) راجع فريدرك نيتشه، جينالوجيا الأخلاق، فتحي المسكين، تونس ٢٠١٠، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، سلسلة: ديوان الفلسفة.

(٢)

(٣) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص ١٠٣.

خامساً: الحتمية المادية تنفي حرية الإنسان وتجعله محكوماً للصيرورة

بالرغم من مقولة الفيلسوف الوجودي المادي بول سارتر المشهورة: "أن الوجود يسبق الماهية" وهو ما يعني أن الإنسان يوجد أولاً، ثم يصنع وجوده ومستقبله بيده تبعاً للأفعال التي يؤديها في حياته؛ لكن هذا الكلام يتناقض في جوهره مع الحتمية المادية التي تشكل أساس العقيدة الوجودية لدى الماديين وتترك الإنسان أسيراً لحكم الصيرورة.

وهنا يأتي اقتباس هيلوقريطس كمعبر عن هذه العقيدة:

" إذا كانت كل حركة مقترنة دائماً بما قبلها كنتيجة وبما بعدها كسبب؛ بحيث أن الحركات الجديدة هي نتيجة لحركات قديمة في نظام ثابت، وإذا كانت الذرات لا تنحرف أبداً وتدشن حركات تتحرر من قيود القدر فتقوض سلسلة الأسباب اللامتناهية فمن أين جاءت حرية الاختيار التي تحوزها المخلوقات الحية في كل أرجاء الأرض؟".

ويبدو أن هذا الاقتباس يريد أن ينتهي لقاعدة أن الماضي يتحكم في الحاضر والمستقبل ولا سبيل لنا للتحكم في الماضي ولا التحكم في الطريقة

التي يتحكم فيها الماضي في الحاضر والمستقبل؛ لهذا لا سبيل لأن نكون أحراراً في حاضرنا ومستقبلنا [١].

هذه المقدمة الأولى صيغة مختصرة لما يعرف بالحتمية المادية يعني وضع العالم في أي لحظة ناتج عن وضعه في اللحظة التي سبقها وهو يتطور عن تلك وفق القوانين المادة الطبيعية الثابتة.

وهنا لا بد لنا حتى نستعيد الحرية البشرية أن ننكر الحتمية المادية بالرغم من أن أفضل علم معاصر في الطبيعة وهو عالم فيزياء الكم بات يتحدث عن أحداث لا أسباب لها بناء على فيزياء الكم.

طبعاً خطورة هذه الفكرة؟ أنها تنفي عن الإنسان المسؤولية الجنائية والأخلاقية عن كل ما يقوم به من جرائم باعتبار أنَّما يقوم به ليس باختياره وإنما نتيجة القوانين الحتمية التي تتحكم بنا فلا يمكن ان أعاقب طفلي الصغير؛ لأنه لم يسافر إلى الشمس أو أحاسبه؛ لأنه طويل وأسمر وهنا يتم الحديث عن نوعين من الحتمية-الحتمية البيولوجية والحتمية البيئية.

١- الحتمية البيولوجية

في عام ١٩٩٧ انتشرت الأخبار في الولايات المتحدة عن عملية قتل مواليد من قبل أمهات مراهقات وإحدى هذه الجرائم تمت بطريقة مخزية حيث دخلت مراهقة حامل في حالة مخاض أثناء حفلة راقصة بالمدرسة الثانوية

---

(١) سايمن بلاكبرن، تفكر مدخل أخاذ إلى الفلسفة، ترجمة د. نجيب الحصادي، ط المنامة هيئة البحرين للثقافة ٢٠١٦ ص ١٠٦.

فولدت طفلها في دورة المياه ورمت به في القمامة ثم عادت إلى مكان الرقص حينها أبدى الكثير من الأمريكيين قلقهم محاولين استيعاب وتفسير ما يجري فقام أحد معتنقي الحتمية البيولوجية ستيفن بينكر وكان يعمل وقتها في معهد ماستشوستس للتقنية والآن يعمل في جامعة هارفرد بتقديم جواب يفترض أنه جواب علمي "جيناتهم جعلتهم يفعلون ذلك" ويحاول تطمين الشعب الأمريكي في مقال له في مجلة "الصندي" التابعة لصحيفة "نيويورك تايمز" بأن قتل المواليد هو سلوك وراثي وجزء من الشبكة العصبية الدماغية للمرأة.[١]

ويبدو من الواضح أن " بينكر" مثله مثل الكثير من الحتميين البيولوجيين لا يرى أي معنى لحياة الإنسان ولا يجد أي غضاضة في قتله طالما أن السلوك متسق مع النظرية المادية الحتمية؛ بل إنه ينزع صفة الإنسان عن الطفل الصغير ويسمي رضيعاً.

٢- الحتمية البيئية

برزت فكرة الحتمية البيئية في عصر التنوير من نتاج فلسفة جون لوك[٢] الفيلسوف الإنكليزي التجريبي في القرن السابع عشر ونظريته سيكولوجية التداعي التي يرى لوك بأن كل أفكار البشر وسلوكهم تُشكَّل بواسطة التأثيرات الخارجية.

---

(١) ريتشارد ويكارد، كتاب موت الإنسانية، ترجمة نايف الملا، ط مركز دلائل ٢٠٢٠ الفصل الثالث، ص ١١٧.

(٢) جون لوك ٢٩ أغسطس ١٦٣٢ – ٢٨ أكتوبر ١٧٠٤ هو فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي.

وكان كلود إدريان هلفتيوس أحد أشهر الحتميين البيئيين في عصر التنوير قد أخذ فكرة الصفحة البيضاء عند لوك وأضاف عليها مقولته لا أحد يولد خيِّراً او شريراً ولا يوجد شيء مستحيل بالنسبة للتعليم.[١]

أي أننا من خلال التعليم في البيئة نستطيع أن نصنع الإنسان وفق المقاييس التي نحددها فرذائل الإنسان وفضائله هي نتائج ظروف خاصة وفي حال وصلنا لقانون اجتماعي كامل فسنحصل على أفراد كاملين وفي ظل وجود حكومة جيدة سيكون الجميع فضلاء وسعداء.

وعلى أساس هذه المقولة لكلود كان أشيعيا بيرلين المؤرخ يصف هلفتيوس بأنه عدو الحرية البشرية.[٢]

٣- نقد مقولة الحتمية عند بيجوفيتش

لا يذهب بيجوفيتش لنقض فكرة الحتمية من إلغائها وإنما من كشف قصورها على جانب واحد من جوانب الإنسان فهو لا يقول إن الحتمية المادية باطلة بكل ما تأتي به من تفسير لسلوك الإنسان والمجتمعات ضمن سياق القسر؛ لكنه يذهب إلى أن هذا التفسير صحيح في أحد جوانب الإنسان الثنائي فهناك الكثير من الأسباب والحتميات المادية في عالمنا البراني؛ لكن هذه الحتمية لا تحكم عالمنا الجواني.

---

(١) ١٦١

(٢) أشيعيا بيرلين، الحرية وخياناتها: ستة أعداء للحرية الإنسانية مطبعة جامعة برينستون ٢٠٠٢ ص ٢٢-٢٣

يفرق بيجوفيتش بين عالم الطبيعة حيث المادة توجد وجوداً موضوعياً فالأرض تدور حول الشمس سواء عرفنا ذلك أم لم نعرفه وهو ما لا يمكن وصفه بالخير او الشر شئنا ذلك أم أبينا فإذا ثمة حتمية مادية تسيطر على عالم الحقائق المادية الموضوعية فنحن في هذا العالم لا نفعل كل ما نريده ولا نستطيع ذلك، حتى لو أردنا فثمة جانب فينا يخضع للحتميات المادية.[١]

لكن السؤال الذي يطرحه بيجوفيتش هنا هل الإنسان هو مجرد مادة ويعيش في عالم المادة وحسب؟ بالتأكيد لا فهناك العالم الجواني الذي يقوم على فكرة الخير والشر والحرية التي تعبر عن نفسها في النيات، والإرادة، والشوق، والرغبة.[٢]

٤- لا أخلاق بلا حرية

ثم يبرز المأزق الأخلاقي للفكر المادي في تأسيس الأخلاق ويتضح بسؤال يطرحه بيجوفيتش وهو هل نحكم على الفعل بأنه أخلاقي بناء على النية والدافع والقصد في السلوك الإنساني؟

أم بالنتائج المترتبة على الفعل؟ طبعاً الموقف الأول هو موقف الأديان والموقف الثاني فهو شعار الإيديولوجيات.

---

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص١٧٨.

(٢) نفس المصدر السابق الصفحة ١٨٠

من أوضح الأدلة التي يسوقها بيجوفيتش على ملَكة الحرية ونفي الحتمية في مسألة النية والإرادة فكل إنسان يتوق إلى الاتساق مع ضميره وفقاً لقوانين أخلاقية، صحيح أن بعض الناس يعيش ضمن حتمية بيئية لا يستطيع سبيلاً لدفع الظلم لكن جميع الناس قادرون على كراهية الظلم واستهجانه.

إن العلاقة بين الإرادة والفعل تعكس التناقض المبدئي بين الإنسان والعالم وتظهر على السواء في الأخلاق والفن والدين فالنية والرغبة والتقوى تنتمي للعالم الجواني وهنا تنتهي المادية إلى عدم أصالة النية والقصد، بل هو شيء أقرب ليكون نتيجة من كونه سبباً، ومن ثم فمصدر الفعل ليس النية وإنما يقع في منطقة وراء الوعي هي منطقة الجبرية التي تتحكم بوعينا كما في نظرية فرويد في التحليل النفس وهنا تصبح الجرائم والسلوك خارج سيطرتنا بسبب تحكم اللاوعي في الوعي.

٥- لا إيمان بلا حرية

كذلك يتعبر ببيجوفيتش أن حرية الإنسان وإيمانه باللَّه هي قضية متلازمة؛ لذلك يتحاشى الملحدون الإقرار بحرية الإنسان؛ لأنهم بذلك سينسفون الحتمية المادية ويؤمنون بالخلق فاللَّه وحده القادر على خلق ذات حرة.

وهنا يقول "إن قضية الخلق في الحقيقة هي قضية الحرية الإنسانية، فإذا قبلنا فكرة أن الإنسان لا حرية له، وأن جميع أفعاله محددة مسبقاً؛ ففي هذه الحالة لا تكون الألوهية ضرورية لتفسير الكون وفهمه، وإذا سلمنا بحرية الإنسان ومسؤوليته فإننا بذلك نعترف باللَّه ضمناً أو صراحة.[١]

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط رقم ١٧ دار الشروق القاهرة، ص٩٧ .

خاتمة

إن نقد الفكر المادي عند بيجوفيتش ليس دعوة لرفضه أو رفض منتجاته الحضارية كما يقر في كتابه وإنما محاولة منه للتنويه إلى الثقوب السوداء، والثغرات الواسعة في جدران الفلسفة المادية وما تحمله من لوازم تسلب الإنسان جوهره الإنساني، وتعيده إلى جوهر حيواني تافه مسلوب الإرادة والحتمية، محكوم بالصيرورة المادية، وهنا يقذف بالأسئلة الحرجة في وجه نظرية التطور ويضعها أمام استحقاق المساحات التي تجهل تفسيرها إلا بالاعتراف الجازم بثنائية التكوين الإنساني، كما ينزل بيجوفيتش العلم المادي من عرش التأله ويعيده لدوره الأداتي المحدود في الكشف عن سؤال كيف نعيش في العالم المادي، وإدانته بالعجز التام عن الجواب على سؤال الغاية من الحياة وعجزه عن تأسيس منظومة أخلاقية ثابتة ومبررة علمياً.

سعى بيجوفيتش لإيجاد توليفة راشدة بين الفكر المادي والفكر الديني والبحث عن خط ثالث يتصالح فيه العقل مع الروح، والعلم مع الدين، والعلم البراني للإنسان مع العالم الجواني، وهنا يأتي الإسلام بتركيبه البديع وثنائياته المتوازنه ليبعث به حاملاً أصيلاً لهذا التوجه وبديلاً مهيمناً على الفلسفة المادية ودامغاً لتخاريفها.

وليضع الأسس النظرية الصلبة لتفكيك كل الانبثاقات الحديثة التي عادت جَذَعَة من جذر تلك الفلسفة المادية بما فيها من التيارات النسوية المتطرفة إلى تيار الإلحاد الجديد وتيارات الشذوذ والإباحية، ودعاة تفكيك الأسرة وعبادة اللذة، وبذلك يكون بيجوفيتش قد حقن الوعي الإسلامي بالمصل المضاد لكل هذه المتحورات الفيروسية المتشكلة من وباء الفلسفة المادية.

غراس
غـــراس
للإنتاج الفـكـري
GHIRASCENTER.ORG